الحياة الحيوانية والسيكلوجية *

إن الحيوان يلازم الإنسان ملازمةً تاريخيةً نفعية ، ولذلك كان من جملة الكائنات التى جذبت إليها تفكيره ؛ وقد بدأ ذلك التفكير ساذجًا ، ثم ارتقى إلى مباحث الفلسفة ، وصار من أول أغراضه تحديدُ معانى الغريزة والذكاء .

وتدل أساطير الأولين على أنهم كانوا يتصورون أن لكل كائن نفسًا كنفس الإنسان ، غير مُفَرِّقِين فى ذلك بين الإنسان والحيوان والنبات ، بل والجماد أيضًا ؛ ومن ضمن اعتقادهم أيضًا أن النفوس تنتقل من جسم إلى جسم .

انتقل ذلك الاعتقاد القديم إلى الفلسفة ، فتصادفه فى الفلسفة الفيثاغورية ، حيث تقول إن النفوس يختلف مصيرها بعد الموت تبعًا لما تستحق من الجزاء ، فمنها ما يحيا حياةً مبرأةً عن المادة ، ومنها ما تستقر فى أجسام جديدة إنسانية أو حيوانية لتؤدى ما يُفرض عليها من العقوبات ، وتدل هذه النظرية على أن النفوس تتساوى فى طبيعتها ، وتختلف بمحلاتها ، وهى الأجسام . . إنسانيةً كانت أو حيوانية . .

* المجلة الجديدة ، أبريل ١٩٣٥م .

وهذا هو رأى أمبيروكليس أيضًا ، ولكنه يرى أن النفوس قد تتقمص النبات أيضًا ، فنفس النبات عنده من طبيعة النفس الحيوانية والإنسانية .

وأول تمييز بين هذه النفوس نجده عند أنكساجوراس ، فكان يقول إن العقل يختلف فى كميته بين الكائنات المختلفة : الإنسان والحيوان والنبات ، وليس فى كيفيته .

وجملة القول . . فالفلسفة قبل سقراط تميل إلى اعتبار النفوس الإنسانية والحيوانية (والنباتية أحيانًا) من طبيعة واحدة ، ومَن مَيَّزَ بين تلك النفوس من فلاسفة ذلك العهد كان تمييزه عَرَضِيًّا ينصب على المحل أو الكلم ، وليس على الجوهر والماهية .

فلما جاء سقراط فَرَّقَ بين الغريزة وبين العقل ، فقال إن العناية الإلهية هيأت لنا غرائز طبيعية غير مفكِّرة ، فالآباء يميلون لتخليد أنفسهم فى أبنائهم ، والكائنات تتفادى الموت وتحرص على الحياة ، وهذه العناية تحمى الإنسان والحيوان على السواء ، إلا أن نصيب الإنسان فيها أوفر وأكمل ؛ وقد حبانا الله عقلاً هو أكمل العقول ، لأنه ليس غير الإنسان مَن يعبد الله ويتنبأ بالغيب ويتوق للعرفان ؛ وقد شُبِّهَ الإنسانُ بين الحيوان بالآلهة .

أما أفلاطون فقد قسم النفس البشرية إلى نفس عاقلة ونفس غضبية

ونفس شهوية ، واعتبر نفس الحيوان نفسًا إنسانية منحطة ، وكان يجب ـ مسايرةً للمنطق ـ أن يعتبر النفس النباتية نفسًا حيوانية منحطة ، ولكنه لم يسلم بتلك النتيجة لأنه لم يعتقد بإمكان حلول النفس البشرية فى النبات ؛ والأصل عنده أن النفوس تهبط من الكواكب إلى الأجسام ، فالفاضلة منها تتطهر فى هذه الحياة ثم تصعد إلى كوكبها ، أما النفوس الضالة التى ينطفئ فيها نور العقل فتتقمص أجسامًا مختلفة تناسب جرائرها ، قد تحل جسمَ امرأة وقد تحل جسمَ الحيوان ، فالنفس الحيوانية نفسٌ بشرية مسختها الذنوب .

والنفس عند أرسطوطاليس أصل الحياة ، ونفس الحيوان هى النفس الحساسة ، وقد حلل هذه النفس ليعرف ما يميزها عن غيرها من النفوس الإنسانية والنباتية . قال إن للحيوان حِسًّا ، وهذا يستدعى أن يشعر باللذة والألم ، وهذان يقرنان بالرغبة ، والرغبة باعث على الحركة ، والرغبة يوقظها الإحساس المباشر كما يوقظها الخيال الحسى ، وهو الصورة النفسية التى تقترن بالإحساس وتستدعيه أحيانًا فى أثناء غياب الباعث الخارجى ، وهى لذلك تكون عنده ما يصح أن نسميه تجاوُزًا بـ«الذاكرة » ، وهو غير ذاكرة الإنسان التى تتميز بالإرادة والجهد تبذله فى سبيل الاستذكار (يوجد ذلك لدى الحيوان ، ولكن الذى يُحرم منه كليةً هو العقل والإرادة الحرة) ، ولكنه مَيَّزَ بين الغريزة والعقل الحيوانى ، ففى حالة الغريزة تتحد ويتداخل الإحساس والرغبة والحركة فلا يختلف

هنا عن النبات ، أما فى الحيوانات العليا فالاختيار يلعب دورًا فى حياتها ، كذلك الخيال الحسى والذاكرة ، مما يحاكيه بالإنسان .

فلما كانت الرواقية ، أنكرت وجود أى عقل للحيوان ، وجعلت من الغريزة وسيلة الطبيعة فى تحقيق غاياتها الحيوية لدى الحيوان والنبات ؛ فالطبيعة تتحكم فى الحيوان والنبات وترسم لها غاية واحدة ، وهى المحافظة على الحياة ونشْر النسل ؛ نعم قد تختلف الحياة النباتية عن الحياة الحيوانية ، ولكنه اختلاف لا يغير من جوهر المسألة شيئًا ، فالنبات لا يدخل فى حياته الإحساس ولا الميل ، والطبيعة تهب الحيوان الإحساس والميل لتقدمه فى النمو درجاتٍ عن النبات ، ولكن هذه المواهب الحيوانية ما تزال خاضعةً لغايات الطبيعة خادمةً لها ؛ وبالرغم من تميز الحيوان بالإحساس والميل ، فتصرفاته عمياء لا فكر فيها ولا تقدير ، وهى واحدة عند جميع أفراده لا تعرف الحزم ولا التردد .

ورد على رأى الرواقيين بلوتارك قائلاً إنه لا معنى لقولنا أنْ ليس للحيوان عقل ، فالعقل ـ كأمورٍ كثيرة ـ درجات ، وللحيوان منه نصيب ، أما إنكار العقل للحيوان لأنه لا يبلغ عنده المدى الذى يبلغه عند الإنسان فمثل إنكار قوة السمع والبصر عند الإنسان لأنه لا يبلغ بها ما يبلغ بعض الحيوان ؛ والحيوان قابل للتعلم ، على استعداد موفور للتقدم ، موهب بالحس ، وهذا يستدعى أن يكون له خيال حسى وذاكرة من نوع ما ، وتحت تأثير دوافع الحب والبغض يستطيع أن يقدّر

للمستقبل مما يشبع هذه الدوافع ؛ وهذا الرأى يعد رجعةً إلى الآراء القديمة ، تتلوه رجعة أخرى نجدها فى الأفلاطونية الحديثة التى أخذت بنظرية تقمّص الأرواح والنفس العامة للوجود . . فالنفوس جميعًا من طبيعة واحدة ، وهى تنفصل عن تلك النفس العامة وتسقط فى أجسام مختلفة ما بين حيوان وإنسان ، حكيم وسفيه ، ثم بعد أن تقضى فترة الحياة الدنيا تؤوب إلى النفس العامة الكونية ، والنفوس الحيوانية هى نفوسٌ فقدت ما يشع فيها من نور العقل فبقى لها الحس والشهوات .

وبعد انتشار الديانة المسيحية اشتهر قوم من دُعاتها ـ مثل ثاتين وارنوب ولاكتنس ـ برأى جديد ، وهو أن المسيحى فقط يتميز عن الحيوان ، وغيره لا يختلف عن الحيوان فى شىءٍ إلا فى عَرَض من الأعراض هو اللغة ؛ أما القديس أوغسطين فقد رجع إلى رأى أرسطوطاليس من أن الإنسان يشترك مع النبات فى الحياة ، ومع الحيوان فى الإحساس ، ويُختص دونها بالعقل ؛ والحيوان له نفسٌ ما دام يسلك السلوك الذى يعود عليه بالخير والفائدة ، وهو يتذكر ويتخيل ويحلم ، ولكن لا دَخْلَ للعقل فى حياته .

ورأىُ أرسطو هذا هو الذى ساد فى القرون الوسطى دون رأى دعاة المسيحية ؛ ويجدر بنا هنا أن نذكر رأى القديس توماس عن النفس الحيوانية ، فقد رأى أنها تشمل الخيال والحواس والتقدير والذاكرة . . فماذا يعنى بالتقدير ؟ يقول إن الطير لا يجمع القش حُبًّا فى جمالها ولكن

ليبنى منها عشه ، فهاهنا غايةٌ لا تدرك بالإحساس ، يدركها بتقديره ، وهو لا يقدّر بعقله وإنما بغريزة تصنع له ما يصنع العقل للإنسان .

ثم جاءت النهضة الأوروبية وثارت ثورةً عنيفة على المُدَرِّسين وآرائهم ، وغلبت عليها نزعتان فكريتان : حب للطبيعة وحماسة للحياة ؛ فبرونو يقول إن كل شيء حى ، وكل الموجودات ـ ما بين الكواكب فى السماء والأحجار على الأرض ـ تحس على نحوٍ مّا ، وإنْ خفى عنا ؛ فالحيوان لا يختلف عن الإنسان إلا فى الدرجة ، وغريزته التى ترعاه صورةٌ أخرى من الذكاء البشرى . وقد غالى مونتنى فى ذلك مغالاةً حتى مَجَّدَ غريزة الحيوان وآثرها على العقل البشرى ! فللحيوان بدائع عجيبة كبدائع العقل البشرى ، والمصنوعات الباهرة تدل على سمو الصانع ، وكلما سما المصنوع وَجَبَ أن يكون الصانع أسمى وأَجَلّ ؛ والحيوان فى الكثير من عمله وفنه يتفوق علينا فى الإتقان والصنعة ، فلأىِّ سببٍ يُقال إنه يُساق إلى فعاله بقوةٍ طبيعيةٍ قاهرة ؟ فالغريزة ليست إلا كلمة فى الأذهان ، والحق أن الحيوان يفكر ويقارن ويستنتج ويتفوق علينا فى كل ذلك ، فإنْ أصر البعض على نسبة فعاله إلى الطبيعة القاهرة فإنهم يزيدون فى تمجيده ما داموا يعتقدون أن الطبيعة تحنو عليه بحبها وتحوطه بعنايتها وتصنع له من غير أن تكلفه أقل عناء ما نعجز دونه بطويل تفكيرنا وعميق تأملنا ، وهذا قضاء على الغريزة بتوحيدها بالعقل .

وقد قضى عليها ديكارت أيضًا ولكن بتحليلها إلى حركات

أتوماتيكية، فالحيوان لا عقل له لأنه لا يستطيع الكلام ، وأقل عقل يجعل الكلام مستطاعًا ، وأعماله لا تدل على عقل ، فإنه وإنْ كان يُبدى مهارةً فائقةً فى صناعته ، إلا أنه لا حول له فى جميع الصناعات الأخرى .

إذًا فما الحيوان ؟

ما هو إلا آلة متقنة الصنع ، وعمل عِدَدِها هو الذى يصنع ما يبهرنا ؛ وقد استُكثر الحس على الحيوان ، ذلك أنه يفصل تمامًا بين الفكر والمادة فى فلسفته ، والحس عنده من لواحق الفكر ، فلو كان للحيوان حس لكان له فكر ، ولكان من الخالدين ؛ وقد انتشر ذلك الرأى بين مفكرى القرن السادس عشر مثل بسكال ونيقول وأرنولد ، فعندهم أن الحيوان لا يخاف ولا يتألم ولا يرغب ، بل يفعل كل شىء مدفوعًا بيد الطبيعة !

وبوسى يحاول التوفيق بين الحسيين والآليين ، فيقول إن الحيوان آلةٌ . . إذا أَثَّرَتْ فيها عوامل خارجية تَصَرَّفَ تصرّفًا من غير إرادة يرد به على تأثير تلك العوامل ، ولكن الطبيعة طبعت فريقًا من العوامل المؤثرة باللذة وفريقًا بالألم ، ومن هنا صحب الحس أفعال الحيوان من غير أن يكون علةً فيها .

أما ليبنتز فقد رفض هذا الفصل بين الإنسان والحيوان ، لأن نظريته الميتافيزيقية تتصور أن الوجود من جواهر بسيطة ، توجد فى أسفلها الجواهر المكوّنة للجماد ، وفى أعلاها تلك المكوّنة للعقل ، وهى سلسلة

متصلة لا فجوة فيها ولا طفرة ؛ فالجماد والنبات يتأثر ، والحيوان يحس ، والإنسان يعقل ؛ والفرق بين التأثر والحس والعقل فرقٌ فى الدرجة والتركيب والقوة ، وليس فرقًا فاصلاً كذلك الذى أقامه ديكارت بين الفكر والمادة ؛ وعليه فللحيوان نفسٌ حسية ، وهى عبارة عن التأثرات التى يتلقاها مضافًا إليها ذاكرة تحفظها وتربطها ؛ فهو موهوب بنوع من العقل ، ولكنه عقل تجريبى لا تسيّره مبادئ عامة ضرورية .

أما كوندياك فله نظرية طريفة كان لها أكبر التأثير ، فهو يرى أن كل ما للحيوان لا يأتيه من الطبع والفطرة ، وإنما من الاكتساب ؛ وما نسميه بالغريزة هو ثمرة التجربة ، وهو فى الأصل عادةٌ نمتها القوى الفكرية ؛ ولا تظن أن الحيوانات العليا تصنع فنونها المختلفة بدافع غريزة هادية طبيعية ، ولكنها تأخذ فى إتقانها شيئًا فشيئًا معتمدةً على التجربة والتمرين ، وكذلك يتعلم الإنسان الرضاعة والإبصار وتقدير المسافات . . ولكن ما القول فى أن عادات الحيوان راتبة وعلى نسق واحد؟

وهنا يجيب بأن كل نوع من الحيوان يتوخى غايات واحدة ، ويجد فى جسمه آلات واحدة فيتوخى سلوكًا متشابهًا .

والمشاهِد يكذّب هذا الرأى ؛ فالغريزة لا تُعَلَّم ، وقد حَوَّرَ العلماء أمثال لامارك وسبنسر وداروين فى ذلك الرأى . فالغريزة قد لا تكون عادةً فردية ، وإنما عادة يكتسبها النوع تدريجيًّا على مَرِّ السنين .

والفرض الذى اعتمد عليه جميعهم هو التطور ، والتناسب بين الجهاز العضوى والغريزة ، واتجهوا فى غير ذلك إلى اتجاهات مختلفة ، فقال لامارك إن الغريزة أصلها عادة موروثة ، وهذه العادة تنشأ تبعًا لتفاعل الجهاز العضوى بالوسط ، مما يكون من نتيجته استعمال أعضاءٍ بكثرة مما يدعو لنموها ، وإهمال أخرى مما يحكم عليها بالضمور . والحيوان يتوارث الجهاز العضوى فى صورته النهائية بعد نمو ما نما وضمور ما ضمر ، وكلما تغيرت الظروف اختلفت العادات وتغيرت الأجهزة العضوية ، وتُوورِثَتْ بالعادات الجديدة التى تَضْحَى من عداد الغرائز الموروثة .

وقد أخذ سبنسر بهذا الفرض ، وفَسَّرَ الغريزةَ بالعادات الموروثة كما فعل لامارك ، ولم يجد اختلافًا أساسيًّا بين الغريزة والذكاء ؛ ففى حالة الغريزة تكون الحياة بسيطة والمؤثرات فيها محدودة ، فتأتى الاستجابات بسيطة محدودة ، وبالتكرار تصير أتوماتيكية ؛ وفى حالة الذكاء تتعقد حياة الكائن وتتنوع فيها المؤثرات والاستجابات بحالٍ يتعذر معها وجود التكرار المتوالى الذى يخلق الأتوماتيكية ، فيكون لدى الكائن استعدادٌ عام للاستجابات تبعًا للظروف المختلفة . . وهو الذكاء .

ولكن داروين لا يقتنع بكفاية الوراثة والعادة فى تفسير الغريزة ، فهنالك من الغرائز ـ مثل غريزة النحلة ـ ما تبدع كل عجيب دقيق لا تستطيع العادة مهما كانت قوتها أن تصنعه وتكونه ؛ أما الذى يفسر

الغريزة حقيقةً فهو ما يفسر تكوين الأنواع ، وهو الاختلاف الفردى وتنازع البقاء والانتخاب الطبيعى ، فالأفراد جميعًا تتصارع من أجل الحياة ، ولا يفوز بالحياة إلا من استكمل العدة لها ؛ وما الغريزة فى الأصل إلا ميزةً أوجدتها المصادفة فى الكائن ، ويدل الحال على فائدتها ، فيحرص عليها الكائن ومَن على شاكلته وتنتشر بالوراثة ؛ وعليه فيكون مرجع كل ما فى الحياة من تناسقٍ ونظامٍ بَيِّنٍ استعدادُ الحى وظروف البيئة إلى المصادفة !!

هذه التفسيرات علمية ، فالعلم يحاول أن يهتدى إلى تفسير ميكانيكى للطبيعة ، لذلك هو يرحب بنظرية التطور لأنها لا تفرض أىَّ فرض غائى. ولكن الفلاسفة لم يقنعوا بذلك ، فأدخلوا العِلَلَ الغائية ؛ ففلسفة هيجل وشوبنهور وهارتمان ليست كالفلسفة التجريبية تفسر الغريزة بميكانيكية الطبيعة العمياء ، وليست كذلك كالفلسفة الروحية تفسرها بأعلى الـمَـلَكَات ، وهى ترى أن الغريزة تتبع غايةً من غير أن تشعر بها ، وهى تشبه فى ذلك حركة الطبيعة نفسها .

ومن ذلك كله يتبين أن الاتضاد مطلق بين الذكاء والغريزة ، وهما قد يلتقيان كما هو الحال فى الإنسان . إلا أن التجريبيين يرون فى الغريزة حركة عكسية ميكانيكية ، ويعتبرون العقل نفسه صورة مركبة منها ؛ وأما عند الميتافيزيقيين فالغريزة فكرة تطورت إلى الصورة الميكانيكية واختفت خلف موضوعها ؛ وقد تَغَيَّرَ اتجاهُ البحث فى العصر الحديث وتجددت

طرق السيكلوجية الحيوانية وتنوعت أغراضها ؛ فليس المهم الآن معرفة أصل الغريزة ، وليس المنهج أن ندرس الحيوان قياسًا على الإنسان ، والسبيل المضمون أن نلاحظ الحيوان ملاحظةً موضوعيةً مفسِّرين كل ظاهرة بالغرائز ، حَذِرِينَ من أن نرجع ظاهرةً مّا إلى مَلَكَة عالية ، متدرِّجين فى الدراسة من أَحَطّ أنواع الحيوان ؛ فعند لوب أن سلوك الحيوان تختلف أنواعه باختلاف أسبابه، فمنه ما يسمى(tropismes) ، وهى حركات بسيطة جدًّا تنشأ من عوامل طبيعية أو كيماوية ، أى أنها ليست فسيولوجية ، ويُحدثها تأثير القلويات فى تركيب جسم الحيوان .

ولكن من سلوك الحيوان ما يرجع لغير هذه الحركات ، وهنا يستطرد لوب قائلاً إن الحيوان موهوب بما يسميه فرق الحساسية ، فهو قد يجذب إلى قوة طبيعية كمصدر ضوء ، فإذا تغيرت درجة النور غَيَّرَ الحيوان اتجاهه، ثم يعود إلى طريقه الأول بعد ذبذبات كالبندول ؛ فالسبب فى هذا التغيّر هو تغيّر إحساسه ، أو الفرق بين إحساسه الأول والثانى .

ولوب يضيف إلى الحيوان غير ذلك أفكارًا ، وهى تتكون من ترابط الإحساسات ، وتجعل للحيوان ما يصح أن نسميه ذاكرة ، وهى من أسباب وبواعث الحركة الحيوانية .

وقد أثار رأىُ لوب هذا نقديْن متضاديْن :

ـ نقد بيث ، وهو ينفى عن الحيوان أىَّ حياة نفسية ، فلا يسلم بوجود إحساسات له ولا أفكار .

ـ ونقد جننجر ، وهو لا يسلم بوجود التروبيزم المذكورة آنفًا ، لأن الحيوان عنده لا يأتى حركات بسيطة كهذه ، فهو يتحرك بقوة ذاتية لا تخلو من شعور باللذة والألم ، فهو يُرجع التروبيزم إلى الحركات العكسية reflexes .

وهذه الحركات العكسية عبارة عن تهيجات مصحوبة بحركات ، ففيها انفعالٌ عصبى وحركة لا تختلف عما سميناه « تروبيزم » ؛ وقد أجرى باولو تجارب كثيرة على الحيوان زادت ثروة معرفتنا عن الحركات العكسية ، وهدت إلى تصوّر نشأة الغريزة .

ويوجد كثير من العلماء يُرجعون الغرائز إلى الحركات العكسية ، وهم لا يرون فيها تصرفات كاملة تحفظ الحيوان وتهديه على وجهٍ لا يدانيه كمال ، فقد تقتل الحشرات نفسها كما برهن مارشال ، وهذا لم يمنع وجود رأى يفسر الغريزة تفسيرًا غائيًا كما فعل بعض الفلاسفة (وهو رأى برجسون) .

وبرجسون يرفض رأى الذين يحددون للحياة غاية ، ويظنون أنها عُرفت من قبل ومهدت لتحقيقها الوسائل ، فأصل الحياة وَثْبَةٌ خالقة هى أصل التطور، والغريزة من وسائل هذه الوثبة التى لجأت إليها .

والذكاء كذلك من الوسائل التى أبدعتها قوة الحياة لتحقيق أغراضها ، وهو غير الغريزة ، وأساليبه غير أساليبها ؛ فبينما يستعمل هو الآلات ، تستعمل هى الأعضاء وتكونها .

وخلاصة القول أن تقدم السيكلوجية يرجع فى الكثير إلى مناهجه التجريبية التى تدرس سلوكه دراسة موضوعية ، وهى تنحصر فى إجراء اختبارات مختلفة على الحيوان : كيف يهتدى إلى طريق معلوم بين شِبَاكٍ من طُرُق ؛ كيف يذلل صعابًا مختلفة ؛ كيف يمكن أن يفتح مِزْلاجًا ؟ وهكذا . ويتعرفون بذلك عقليةَ الحيوان ، ويقدّرون ذكاءه وكيفية تحصيله للعادات .

ولكن يجب ألا نغفل عن الصعوبات التى تعترض هذه المناهج ، فالتعبير عسير فيها ، وقَلَّمَا يتضح إقناعًا تامًّا ؛ ثم إنها تقف حائرةً أمام بعض الأسئلة لا تستطيع جوابًا ، مثال ذلك : ما الباعث الذى يجعل الحيوان يُؤْثِرُ بعضَ السلوك على بعض ؟ ولماذا يميل إلى تكرار النافع منها الذى يؤدى إلى الغرض مع أنه لا يعقل ما المنفعة ؟

فالحق أن هذه الطرق التجريبية قد أفادتنا جليل الفائدة فى معرفة تفاصيل الحياة الحيوانية ، ولكن هذا لم يحل لنا المسألة الفلسفية عن أصل الغريزة وطبيعتها ، ولم يُغْنِ عن الفروض الغائية التى بقيت كحلٍّ نهائىّ يرجع إليه المفكر إذا لجت به الحيرة كما فعل برجسون .